أبو القاسم سعد الله: نجم ساطع في سماء الجزائر

د. خالد بوهند

جامعة سيدي بلعباس

يعد الدكتور أبو القاسم سعد الله من ضمن المؤرخين الجزائريين الذين أثروا المكتبة الوطنية الجزائرية ، ليس بعدد مؤلفاتهم فحسب ، وإنما أيضا بنوعيتها ، بل وبقيمتها العلمية الهامة ، وهو بهذا عُدَّ رفقة المؤرخين الآخرين كمحفوظ قداش ، وناصر الدين سعيدوني ، ويحي بوعزيز ، وعبد الحميد حاجيات ، ومولاي بلحميسي وغيرهم ، من الجيل الذي ساهم في وضع أسس المدرسة التاريخية الجزائرية .

1-بعض مؤلفاته

من الجدير بالذكر أن الدكتور سعد الله ، كان ميالا أكثر للبحث في مجال تحقيق التراث الوطني ، حيث سعى بكل ما أوتي من جهد وإمكانيات للملمته ، قدر الإمكان ، لأنه كما هو معروف ، بعض ذخائر الجزائر من مخطوطات ونوادر علمية وتاريخية ، هو في عداد المفقود ، والبعض الآخر يرزح في رفوف المكتبات الأجنبية في البلدان العربية وفي أوروبا ، لا سيما في فرنسا ، بحكم العلاقة التاريخية التي ربطت الجزائر بفرنسا ، ومن ضمن أعماله في هذا المجال : تحقيق "تاريخ العدواني" ، وهو عبارة عن مقتطفات من تاريخ المغرب العربي منذ الفتح الإسلامي(طبعة دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005) ، و"رسالة الغريب إلى الحبيب" لمؤلفه أحمد أبو عصيدة البجائي ، الذي يندرج في فن الأدب والرحلة (طبعة دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1993) ، و"السعي المحمود في نظام الجنود" لمؤلفه القاضي والمفتي محمد بن العنابي ، يدور موضوعه حول ضرورة تطوير الجيش لمواجهة الحركة الاستعمارية (طبعة دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990) ...الخ .

للدكتور سعد الله اهتمام خاص بالدراسات في مجال الأدب والرحلة ، والثقافة بشكل عام ، على غرار دراسته حول "القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني" (طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985) ، و"تجارب في الأدب و الرحلة" ، وهو كتاب مزج فيه سعد الله بين البحث التاريخي والأدبي ، وعن رحلاته مغربا و مشرقا (طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب ،

الجزائر ، 1983) ، وغيرها من الأعمال ، التي توجت بكتابه الهام "تاريخ الجزائر الثقافي" ، الذي ظهر أولا في جزأين (طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981) ، ليصل العدد فيما بعد إلى عشرة أجزاء كاملة (طبعة دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2009) هذا الكتاب الأخير ، غطى طول الفترة العثمانية وفترة الاستعمار الفرنسي لغاية 1962.

لم يهمل الدكتور سعد الله ميادين التاريخ الأخرى ، كالتاريخ العسكري والسياسي للجزائر خلال فترة الاستعمار الفرنسي ، فألف كتاب "الحركة الوطنية الجزائرية" ، يتوفر لدينا منه الجزء الأول ، القسم الأول والثاني 1830-1900، (القسم الأول 1830-1870 طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1992) ، والجزء الثاني 1900-1930 ، الذي هو في حقيقة الأمر رسالة سعد الله للدكتوراه ، التي ناقشها بجامعة مينيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكة سنة 1965 ، ثم نشرها ضمن الجزء الثاني المذكور سلفا ، عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1983 ، وظهر الجزء الثالث الذي غطى الفترة الممتدة بين 1930-1945 (طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986) .

وتوطئة أو تكملة لمؤلفات الدكتور سعد الله ، المذكورة منذ قليل ، صنف هذا الأخير "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ، وهي عبارة عن مجموعة من المقالات والدراسات غير المسبوقة ، تناول فيها باحثنا مواضع متعددة تخص التراث ، والحركة الوطنية الجزائرية ، وبعض التراجم ، وتقديم لبعض الكتب المهمة ، غطت هي الأخرى فترتين : العهد العثماني وعهد الاحتلال الفرنسي ، بين أيدينا الجزء الأول (طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981) ، والجزء الثاني (طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986) .

2-موقفه من بعض القضايا الشائكة

يرجع الدكتور سعد الله سر اهتمامات الفرنسيين بالأدب الشعبي والفنون الشعبية ، خلال الحقبة الاستعمارية ، لاعتقادهم بأن ذلك بمثابة سلاح وجب تصويبه لضرب الوحدة الوطنية من جهة ، وفصل الجزائر عن حضارتها العربية الإسلامية من جهة أخرى : « فبينما لا يكادون يتعرضون إلى الأدب القومي والفنون الإسلامية المشتركة أغرقوا مجلاتهم ومؤلفاتهم بدراسة اللهجات والشعر الملحون والموسيقى الجهوية وغير ذلك من وسائل تفريق الشعب الواحد بينما لا يفعلون ذلك مع لغتهم ولا مع أدبهم ولا مع موسيقاهم...»[1] .

إن السياسة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر ، كان لها تداعيات حتى بعد الاستقلال ، من مسألة التعريب ، حيث يحدد الدكتور سعد الله العراقيل التي تعترض سبيل ذلك : « أخطبوط الفرنكفونية ووقع بعض الجزائريين في حبائله ، وإذا كان لهذا الأخطبوط وجه سياسي ووجه ثقافي ، فإننا في الواقع واقعون في شرك الفرنكفونية الثقافي على الأقل ، رغم إعلاننا عكس ذلك ...»[(2)].

كان تكريس لغة جامعة توحد الجزائريين ، هاجسا أرَّق الدكتور سعد الله ، ولا يمكن أن تتجسد هذه اللغة الجامعة إلا في اللغة العربية . لذلك اشتهر بموقفه المتشدد إزاء اللهجات الأمازيغية والعربية ، إذ لم يكن في البداية يعترف بالأدب الشعبي-كما رأينا منذ قليل-لأن الإبداع حسبه لا يمكن أن يولد خارج اللغة العربية الفصحى . كما اعتبر "لغة الأمومة" مجرد نظرية أكاديمية تتنافى مع الواقع المعيش ، وتهدد المجتمع بالتشظي والانقسام ، بسبب كثرة اللهجات العربية والأمازيغية التي يرضعها أطفالنا في ربوع الوطن .

لكن بعد مرور سنوات على موقف الدكتور سعد الله السالف الذكر ، غيره صاحبه بما هو أعدل وأنصف ، لأسباب عديدة ومختلفة مرتبطة بالعلم والمعرفة ، كتواصله المباشر مع الثقافة الأمازيغية ، في سياق أبحاثه الأكاديمية ، وقد حظيت منطقة زواوة باهتمام سعد الله ، في إطار جهوده العلمية المبذولة لإنجاز تاريخ الجزائر الثقافي .

جاء اعتراف الدكتور سعد الله الصريح ، بالمكون الأمازيغي للشخصية الجزائرية ، من خلال مقاله الموسوم "هيئة مغاربية للغة البربرية ؟" ، مؤرخ في 7 سبتمبر 1994 ميزته الجرأة في دعوة الحكومات المغاربية إلى التكفل بالقضية الأمازيغية ، حتى لا تتلاعب بها الأيدي الأجنبية مستقبلا . إن هذا المقال يعتبر منعرجا حاسما في مسار الرجل ، صحح فيه موقفه السلبي إزاء الأمازيغية ، وبرر الدكتور سعد الله اقتراحه القاضي بإنشاء هيئة علمية للأمازيغية ، بأسباب موضوعية أهمها : -توحيد عقول الأجيال وتحصينها بالوطنية .

-إسناد مهمة ترقية وتطوير اللغة الأمازيغية للجماعة في إطار هيئة علمية محلية أو جهوية ، غايتها تحقيق الأهداف التالية :

أ-إقرار المصطلحات العلمية واللغوية المستمدة من التراث العريق لسكان بلاد المغرب القدماء.

ب-تبني أبجدية منسجمة مع المنظومة التربوية في المنطقة المغاربية من جهة ، ومع التراث المكتوب الذي تركه البربر أو الأمازيغيون أنفسهم عبر مئات السنين ، من جهة أخرى .
ج-جمع التراث الأمازيغي وتصنيفه والمحافظة عليه والاستفادة منه في الوقت الحاضر ، وإثراء اللغة العربية به ، سيما وقد ثبت أن الأصول اللغوية والعرقية للبربر والعرب واحدة .
د-وضع برنامج لفتح الدروس وحلقات البحث ، وغصدار النشرات العلمية [3].

3-رؤيته الاستشرافية

بمناسبة مرور خمسين سنة على استقلال الجزائر ، كتب الدكتور سعد الله خريطة للتراث الثقافي ، ينتقد فيها الجهات الرسمية الوصية على الاحتفال بهاته الذكرى ، وفي نفس الوقت يبدي نظرته الاستشرافية : « أين في احتفالات الذكرى خريطة التراث الثقافي من الكتب المخطوطة ، في التفسير والحديث والفقه والتصوف ، في الفلك والطب والمنطق والرياضيات ، في اللغة والبلاغة والأدب والشعر ، في الأدب الشعبي بأنواعه ، في الموسيقى والفن ، في الطراز العمراني المقارن مع النماذج المغاربية والأندلسية والمشرقية والتي تؤلف كلها ماهية الثقافة العربية الإسلامية »[4].

ويتساءل الدكتور سعد الله بهذه المناسبة : « هل تعين للمناسبة فوج من الخبراء لتعيين المتاحف وتوزيعها حسب أهمية مناطقها ، وتسمية المكتبات الخاصة والعامة ، ونشر قوائم محتوياتها ، وإحصاء المؤسسات التعليمية كالمساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب ؟ هل اشتملت الخريطة على أنواع الصناعات المحلية ونتاج التقاليد الشعبية ؟ »[5] .

وفي موضوع التعليم الذي هو ركن أساسي للخريطة الثقافية في الجزائر ، تساءل الدكتور سعد الله : « هل تشكل فوج لدراسة وتقييم المنظومة التربوية التي هي عنوان الذكرى وروحها ولحمتها وسداها ؟ » [6] ، لأنه يدرك كما يدرك جميعنا أنها : « احتوت على أشكال مرعبة لو اطلعت عليها لوليت منها فرارا ولملئت منها رعبا...فأي احتفال بذكرى لا يتناول المنظومة التربوية بالتقييم ، إنما هم من قبيل الضحك على الذقون ؟ »[7] .

أما التعليم العالي ، فلم يكن أوفر حظ من المنظومة التربوية ، فقد خصه الدكتور سعد الله بحديث كله نقد على الإهمال والتقصير : « ...ماذا فعلت الجزائر الخمسينية في هذا الميدان ؟ نحن نقيس تقدمنا العلمي بالكيلات والأغمار (كذا) ، لأن الذي يهمنا من الجامعة

هو الكم لا الكيف ، فإحصاءاتنا تعلن أننا نخرج كل سنة كذا طالبا جامعيا ، وتتحرج من تصنيف الجامعات وتخصصات الطلاب والفروع العلمية . حقيقة إننا أنشأنا جامعات في مختلف الولايات ولكن دون استراتيجية ولا برامج هادفة ...»[8] .

وفي موضوع الأخلاق والمجتمع ، رافع الدكتور سعد الله من أجل ترسيخ الأخلاق النبيلة التي سطرها الإسلام ورسختها الثورة ، كالوفاء والإخلاص وعزة النفس والاحترام المتبادل والالتزام بالعهد وأداء الأمانة ، لأن حسبه : « ما نقرأه في الكتب وما سجلته الذاكرة عن ممارسات الأجداد ، غاب في ضباب العولمة وأصبح النموذج الرسمي السلبي الشائع في الإعلام والكواليس كالنهب والسرقة والتعدي على الحرمات والاغتصاب والقتل في سبيل أغراض تافهة وعارضة ، هو النموذج الأكمل عند شباب المرحلة مهما حاولت أن تقنعهم بغير ما يقرأ ويشاع[9] .

4-كلمة عرفان وامتنان

لقد كان الدكتور سعد الله أولا وقبل كل شيء أستاذا: « متخلقا وصارما..وحذقا..وحكيما متبصرا بمسؤولية المؤرخ التي يحس بها..و مضيافا...» [10] مثل أهل المنطقة التي ينحدر منها ، لقد خُلق للعلم والعمل ، فاستحق عن جدارة واستحقاق لقب "شيخ المؤرخين الجزائريين" ، أما نحن جيل المؤرخين الجديد ، بقي لنا أن نسأل السؤال التالي : ماذا يمكن لنا أن نقدم للجزائر بعد هذا الذي تركه الدكتور أبو القاسم سعد الله ؟.

الهوامش

(1)-أبو القاسم سعد الله ، قضايا شائكة أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 ، ص.ص.12-13.

(2)-نفس المصدر ، ص.ص.20-21.

(3)-محمد أرزقي فراد ، « المؤرخ أبو القاسم سعد الله والأمازيغية..من الإجحاف إلى الإنصاف» . الشروق ، عدد 4260 ، السبت 18 جانفي 2014 ، ص.21.

(4)-أبو القاسم سعد الله ، « خريطة التراث الثقافي » . الخبر ، السبت 20 أكتوبر 2012 ، ص.19.

(5)-نفس المقال ، ص.19.

(6)-نفس المقال ، ص.19.

(7)-نفس المقال ، ص.19.

(8)-نفس المقال ، ص.19.

(9)-نفس المقال ، ص.19.

(10)-محمد الأمين بلغيث ، « مواقف إنسانية عشتها مع العلامة أبو القاسم سعد الله » . الشروق ، عدد 4254 ، الأحد 12 جانفي 2014 ، ص.10.